الفصل الثالث

المرحلة الأدبية الوسيطة

obeikandl.com

obeikandl.com

المرحلة الأدبيـة الوسيطة

١

إننا نكون كمن يحاول أن يحرث فى البحر إذا حاولنا فهم "تاريخ الأدبى الوسيط لمصر والأقطار الإسلامية ، على ضوء الوطنية ، أو الإقليمية ، أو القومية العربية ؛ إذ أن الأساس الوحيد الصحيح الذى ينبغى أن تعتمد عليه هذه المحاولة ، هو تلك الرابطة التى أوجدها الإسلام بين هذه الأقطار . فعلى الرغم من أن مصر قضت مابين سنتى ٢٥٤هـ – وهو تاريخ قيام الدولة الطولونية بمصر – وسنة ٩٢٣هـ – وهو تاريخ الفتح العثمانى لها ، أى حوالى سبعة قرون تتمتع باستقلال ذاتى ، مكّنها من أن تلعب دوراً خطيراً فى التاريخ العربى والإسلامى ، فإن المصريين لم يكونوا يجدون غضاضة فى أن يتولى حكمهم أجنبى عنهم طالما كان مسلماً – سواء أكان طولونيا أم إخشيديا أم فاطمياً أم كردياً – من بنى أيوب – ، أم مملوكاً .

وكانت مصر – بحكم مركزها من العالم الإسلامى ، وبحكم موقعها الجغرافى – محطاً للعلماء والمفكرين ، والأدباء المسلمين على اختلاف أوطانهم ؛ ولذلك تصادفنا الألقاب المشتركة لهؤلاء الرجال ، من مثل : فلان المصرى ، المقدسى ، أو المغربى ، السكندرى ، وهكذا .

obeikandl.com

وقد وصلت مصر فى عهد الدولة الأيوبية ، وبعد ذلك فى عهد المماليك ، إلى زعامة العالم الإسلامى كله ، بفضل ماضحَّت به فى محاربة الصليبيين ، وفى صد هجمات المغول . وقد هيأ لمصر أن تنهض بأعباء هذه الزعامة عدة عوامل ، منها : أن دولة الأيوبيين التى قضت على الخلافة الفاطمية ، ونجحت فيما أخفقت فيه من طرد الصليبيين ، قد أعادت الإمارات الصليبية إلى حظيرة الإسلام ، فى الوقت الذى ضعفت فيه الخلافة العباسية فى بغداد ، وعجزت عن القيام بدورها فى حماية العالم الإسلامى . كذلك استطاع المماليك أن يصدوا تيار المغول ، الذين قوَّضوا بغداد ذاتها ، كما نجحوا فى مقاومة الصليبيين ، وطردوا البقية الباقية منهم نهائياً من الساحل . وزادوا على ذلك أنهم حاولوا إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ، فجلبوا الخلفاء العباسيين إليها ، للإقامة بها ، فاكتسبوا بذلك صفة شرعية ، خلقت لهم منزلة كبيرة ، وجعلت للقاهرة مقاما ، قصرت بغداد عن بلوغه .

فلا عجب إذن أن يوصف هذا العصر من قبل مؤرخى بغداد – بأنه عصر الانحطاط الأدبى والثقافى ، إلا أنه فى مصر كان عهدَ الحفاظ على الحضارة العربية والتراث ؛ إذ أن مصر لم تعرف الانحطاط الثقافى والأدبى إلا فى عصر العثمانيين .

وقد استطاع صلاح الدين أن يقضى على كل أثر للفاطميين ودعوتهم فى مصر ، بما استحدثه من المدارس السُّنِّية ، التى انتشرت فى كل مكان ، وحلَّت محلَّ دار الحكمة ، أو دار العلم ، التى اعتمد عليها الفاطميون فى نشر دعوتهم ، إلى جانب الأزهر والمساجد المختلفة ، وما أُلحق بها من مكتبات .

وكان لهذه المدارس السنية فضل كبير فى إزالة ما تبقَّى من آثار العقائد الفاطمية فى مصر من ناحية ، وفى إثارة المشاعر الدينية ضد الصليبيين من ناحية أخرى ، بوساطة العلماء والفقهاء ، الذين تَصدَّوا لهذه المهمة الجليلة . وقد بلغ عدد هذه المدارس خمساً وعشرين مدرسة فى العهد الأيوبى . وتابع المماليك الاهتمام بهذه المدارس : فأنشأ الصالح أيوب المدرسة الصالحية ، وكانت أشبه بجامعة تضم كليات لدراسة المذاهب الفقهية السنية الأربعة . كما أنشأ الظاهر بيبرس مدرسة عرفت باسمه فى (بين القصرين) ، وزودها بمكتبة هائلة ، وجدد الجامع الأزهر ، وردَّه إلى الحال

التى كان عليها زمن الفاطميين ، فقصده الطلاب من جميع أرجاء العالم الاسلامى ، وبرز فيه علماء كبار ، من مثل : ابن خلكان صاحب « **وفيات الأعيان** » ، وابن واصل صاحب « **السيرة الظاهرية** » . وقد تمثلت أسرة قلاوون نهج بيبرس فأكثرت من بناء المدارس والجوامع والبيمارستانات . وسارت المماليك البرجية على سنة المماليك البحرية ، فبنى كل من السلطان برقوق ، والسلطان قايتباى ، والسلطان الغورى مدارس ومساجد عديدة ، امتلأت بالأساتذة والمدرسين ، وزودت بالكتب المختلفة فى شتى العلوم والفنون ، وظلت ناهضة بمسئوليتها العلمية حتى دخول العثمانيين .

وقد كان بين سلاطين الأيوبيين فى مصر والشام شعراء وأدباء كثيرون ، وكانوا يحتفون بالأدباء والعلماء احتفاء كبيراً . وعلى الرغم من أن المماليك لم تكن لهم قدرة الأيوبيين ، ولا مشاركتهم فى الحركة العلمية والأدبية ، فإنهم لم يقلُّوا عنهم عناية واحتفاء بالعلماء والأدباء ، وتشجيعاً لهم ، وإغداقاً عليهم .

وبمجىء العثمانيين إلى مصر ، تغير وجه الحياة المصرية ، وأصاب الحركة العلمية ، والنهضة الأدبية تعطُّل بل جمود . وانحصر النشاط العلمى والفكرى والأدبى فى الأزهر الشريف ، الذى لقى من رعاية العثمانيين ما مكَّنه من مواصلة دوره .

• • •

٢

وقد أُثر عن عصر الأيوبيين والمماليك مؤلفات عديدة ، تتسم بالموسوعية فى شتى الفنون والآداب . ذلك أن مصر فتحت صدرها للعلماء والأدباء اللاجئين إليها ، فرارا من الخطر المغولى الذى اجتاح بغداد . وشجعهم سلاطين المماليك على إنقاذ التراث الإسلامى العربى ، فجمعوه فى كتب كبيرة ، أشبه بدوائر المعارف ، من مثل : **لسان العرب** لابن منظور ، الذى جمع فيه صاحبه ستة كتب هى : التهذيب

للأزهرى ، وصِحَاح الجوهرى ، وحواشى ابن بِرِّى على الصحاح ، والمحْكَم لابن سِيده ، والمخصَّص له أيضاً ، والنهاية لابن الأثير . وهو بهذا أوسع المعاجم اللغوية ، ويشتمل على فنون لغوية ونحوية وصرفية وفقهية وأدبية وأخبارية وأحاديث وتفسير للقرآن .

ومن هذه الموسوعات أيضاً **نهاية الأرَب** للنويرى فى ثلاثين جزءاً ، **ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار** لابن فضل الله العمرى فى أربعة عشر جزءاً ، وكتاب **صُبْح الأعشى** للقلقشندى .

وقد رافقت هذه الحركة العلمية المزدهرة فى عصر الأيوبيين والمماليك ، والتى تمثلت فى بناء المدارس لتعليم الفقه والحديث ، ولإذكاء روح الحماس الدينى اللازم للتصدى لأعداء الاسلام من الصليبيين والمغول ، حركةٌ نشطة لبناء الخوانق التى يقيم فيها المتصوفة ، وإجراء الأرزاق عليهم . وقد انتشرت هذه الخوانق فى كل مكان ، وكانت تفتح أبوابها لايواء الغرباء من المسلمين ، وللمتصوفين الذين كانوا ينقطعون فيها للعبادة والذكر .

وقد أنشأ صلاح الدين أول خانقاه فى مصر ، وهى خانقاه سعيد السعداء ، ونافسه المماليك فى بناء الخوانق ، فبنى بيبرس الخانقاه البيبرسية ، كما بنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس . وكانت الخانقاه فى عصر المماليك تقوم بمهمة المدارس ، فيدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة ، والتفسير والأصول .

وقد أبرزت هذه الحركة العلمية والصوفية أعلاماً من المتصوفة الفقهاء كالسيد عبد الرحيم القنائى . والمتصوفة الفلاسفة كعمر بن الفارض سلطان العاشقين ، والفلاسفة الدراويش ، الذين تعددت طرقهم . وقد أحصى منهم المؤرخون ستا وثلاثين طريقة أشهرها الرفاعية والشاذلية والأحمدية . وكان حظ هذه الطرق من العلم قليلاً ، ومن الفكر أقل ، حتى إنهم شغلوا عن لُبِّ الدين بقشوره . وآمنوا ببعض الخرافات . وانحصرت العبادة عندهم فى الأذكار ، وأسقطوا التكاليف .

وهكذا انحدر التصوف من الاهتمام بأمور الدين وفقهه وفلسفته ، إلى الفساد

والانحراف والبدع والخرافات ، ومن المرابطة والجهاد فى سبيل الله إلى التنطع والذكر فى الموالد . وصادف ذلك اضمحلال دولة المماليك ، ومجىء العثمانيين .

أما موقف المماليك فى إبان قوتهم من الحركة الأدبية ، فقد لقى الأدباء والشعراء من سلاطين المماليك ، ما كانوا يلقونه من خلفاء الفاطميين ، وملوك بنى أيوب من تشجيع وتقدير . وواصل الأدب فى عهد المماليك ازدهاره الذى بلغه فى العهدين السابقين . وكانت الدولة الفاطمية حريصة على نجاح دعوتها ، فاعتمدت فى ذلك على الشعراء والكتّاب ، وأصحاب الأقلام والألسن ، الذين أغدقت عليهم بسخاء ، فكان أن أقبلوا عليها ، والتفوا حولها ، وتحمسوا لها ، وهو ماتعكسه مرثية عُمارة اليمنى فى دولة الفاطميين بعد انهيارها .

وكذلك كان بنو أيوب الذين أسهموا فى الحركة الأدبية بأنفسهم ، وكذلك صنع المماليك الذين شجعوا الأدباء والشعراء ، فازدهر الشعر السياسى ، الذى أذكاه التحمس الدينى فى مواجهة أعداء الإسلام ، فنتج عن ذلك شعر القومية الإسلامية ، الذى تجاوبت به مصر والشام والعراق . وتصادفنا فى عهد الدولة الأيوبية أسماء شعراء أشادوا بصلاح الدين : كالعماد الأصفهانى ، وسبْط بن التعاويذى البغدادى ، وابن سناء الملك المصرى ، وابن عُنين ، وابن النبيه ، والبهاء زهير ، وسبْط بن الجوزى ، وابن مطروح . أما فى العصر المملوكى فتطالعنا أسماء شعراء من المتصوفة : كالبوصيرى والشعرانى وابن الكيزانى ، وإبراهيم الدسوقى ، الذين اهتموا بالمديح النبوى ، ونشروا خلاله أفكاراً عن الحقيقة المحمدية ، والنور المحمدى ، وملئوها حماسة وفداء .

فى هذه الفترة تصادفنا فى الشعر ثلاثة اتجاهات :

الأول : الاتجاه البديعى ، ويغلب عليه التكلف والصنعة . وأكثر مايكون فى شعر المناسبات ، الذى يتأثر كثيراً بحياة الحكام والدواوين . ومن فرسانه القاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى ، وابن سناء الملك ، وابن النبيه ، وابن الساعاتى ، وكلهم من شعراء الأيوبيين . أما شعراء المماليك فمنهم ابن نباتة المصرى .

الثانى : الاتجاه الذاتى الذى كان بسيطاً ومتحللًا إلى حد كبير من قيود الصنعة اللفظية . وقد شاع هذا الاتجاه فى أغراض الغزل والمدائح النبوية ، وقد غلبت عليها الرقة والسهولة . وخير من يمثل هذا الاتجاه البهاء زهير ، وابن مطروح ، وأبو الحسين الجزار ، والسَّراج ، والورَّاق وغيرهم .

الثالث : وهو ماعرف بمدرسة المجون أو التحامق . وقد اشتهر فيها أبو حامد الأنطاكى المعروف بأبى الرَّقَعْمَق ، وصريع الدِّلاء ، وصالح بن يونس ، المعروف بابن مكنسة . وقد غلب على شعر هذه المجموعة التهكم والتندر ، فى حين غلب على شعر المجموعة الأولى فنون التورية كالإيهام والتوجيه والإلغاز – حتى ليذهب بعض المؤرخين إلى أن الأدب منذ أواخر العصر الفاطمى إلى نهاية العصر العثمانى كان تورية من أوله إلى آخره . ويرون أن هذا الفن يكشف عن طبيعة الشخصية المصرية .

وعندما دخل العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٦م طُوِيَتْ صفحة التفوق فى العلم والأدب ، وعاش الدارسون على ماحصَّلوه من زاد فى عصر الأيوبيين والمماليك . وانحصر همهم فى شرح الكتب القديمة ، ووضع الحواشى والتقارير ، مما يدل على أن هذا العصر كبَتَ قوى الإيداع ، واعتقل ألسنة الأدباء ، وأصاب الحركة الأدبية بالعقم والجمود . وقد اضطر « ساجقلى زاده . ت ١١٥٤ هـ » إلى وضع كتاب عنوانه (ترتيب العلوم) ، ويبرر صُنْعه بقوله : إنه نظراً لتكاثر الشروح ، وشروح الشروح ، والحواشى ، وحواشى الحواشى ، وتفرع العلوم وكثرتها .. أصبح أمرها عقبة فى طريق طلَّاب العلم ؛ إذ يلتبس عليهم فهْم القضايا ، فألَّفتُ هذا الكتاب لترتيب العلوم بحيث يُعْرف الأصل من الفرع .

ولم يكن فى هذا العصر من حسنة إلا « الزَّبيدى » الذى يُعَدُّ فلتة من فلتاته . وقد جاء إلى مصر من اليمن سنة ١١٦٠ هـ . وقد شرح القاموس المحيط للفيروزبادى ، فى أربعة عشر مجلداً . وسمى شرحه « تاج العروس فى شرح القاموس » وهو دائرة معارف لغوية ونحوية وصرفية وأدبية ، قريبة الشبه من لسان العرب لابن منظور .

وطبيعى ألا يبرز أديب عملاق ، أو شاعر مرموق ، فى عصرٍ حكَمَه الأتراك العثمانيون ، الذين وجهوا اهتمامهم إلى نهب ثروات مصر ، وبخاصة ثرواتها البشرية ، الإنسان . حيث نقلوا مهرة العمال إلى إستانبول ، وامتلأ عصرهم بالعسْف والرشوة ، والفساد والظلم والاضطهاد .

أما عن شعراء العصر العثمانى ، فكانوا من أوساط الشعراء ، من أمثال الشيخ حسن البدرى ، والشيخ عبد الغنى الطرابلسى ، وأسعد مصطفى اللّقمى الدمياطى ، وابن الصلاحى ، والشبراوى . ولم يكن لواحد منهم باع ، أو شهرة فى مجال الابداع .

وتغلب على أشعارهم الحذلقة القائمة على نقل النقط بين الحروف ، وهو نوع سخيف من التصحيف ، لايدل إلا على الإفلاس الفنى ليس غير . ووصل الاحتفاء بمثل هذا الهذر والاهتمام بحساب الجُمَّل ، وضروب البديع المتكلف ، إلى الحد الذى يصفه الأستاذ العقاد فى فصوله بقوله :ـــ « لقد كان رفعُك لخرقة منتنة خيراً من النظر فى بيت شعر من أشعارهم » .

وعلى نحو ماازدهر الشعر على عهد الأيوبيين والمماليك ، وانتكس على عهد العثمانيين ـــ كانت الكتابة أيضاً ، وكانت قد بلغت حداً من البراعة على أيدى كُتَّاب متمكِّنين – كالقاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى فى العهد الأيوبى ، ومحيى الدين ابن عبد الظاهر فى العصر المملوكى .

أما الكتابة الهزلية ، فقد ازدهرت هى الأخرى فى العصر الأيوبى . ومن نماذجها فى ذلك العصر : رسائل الوهرانى ، وكتاب « الفاشوش فى حكم قراقوش » لابن مماتى ، وقد وجدت بعض نماذجها الهزيلة فى عصر العثمانيين مثل :ـــ « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » للشربينى .

وقد برع فى التأليف لعصر الأيوبيين ، أبو على الجوانى المصرى ، صاحب « طبقات الطالبيين » ، والعماد الأصفهانى صاحب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » وهو تأريخ لحياة صلاح الدين ، وفتحه بيت المقدس ، و « خريدة القصر

وجريدة العصر » وهو تراجم لأدباء القرن السادس ، يسير وفق نهج « يتيمة الدهر » للثعالبى ، و « دمية القصر » للباخرزى ، وله أيضاً « البرق الشامى » ، وفيه أخبار فتوح الشام فى سبعة مجلدات . ومن مؤرخى هذا العصر ابن شداد الذى أرَّخ لسيرة صلاح الدين فى « النوادر السلطانية » ، وقد تتلمذ عليه ابن خلّكان صاحب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » وهو معجم تاريخى ضخم ، وذخيرة علمية وأدبية وتاريخية ولغوية فى غاية الأهمية .

وقد أبرز عصرُ بنى أيوب القِفطىّ ، صاحب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، والإدفوى صاحب « الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » وهو تراجم لنجباء الصعيد بمصر ، وممن أرَّخوا للدول أبو شامة – شهاب الدين المقدسى الشافعى – الذى يُعَدُّ مؤلفه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » – من أوسع المصادر العربية والإسلامية لتاريخ الحروب الصليبية ، وابن واصل الذى عاصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ، وترك لنا كتابه القيم « مفرِّج الكروب فى أخبار بنى أيوب » .

وقد حظيت مصر فى عهد المماليك بطائفة من أبرع المؤرخين كالمقريزى صاحب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المعروف بخطط المقريزى ، فضلاً عن تأريخه لعصور التاريخ المصرى الإسلامى الثلاثة : عصر التبعية للخلافة فى « عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط » ، والعصر الفاطمى فى « اتِّعاظ الحُنفا بذكر الأئمة الخلفا » ، وعصر بنى أيوب فى « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، فضلاً عن « المقفى الكبير » فى تراجم حكام مصر ، و « دُرَر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » ، و « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » ، وكتابه الشهير « إغاثة الأمة بكشف الغمة » الذى أرَّخ فيه لأحوال مصر الاجتماعية ، وما أصابها من محن ومجاعات ، عزاها إلى سوء تدبير الزعماء والحكام ، وهو تفسير اقتصادى تاريخى ، تابع فيه نهج أستاذه ابن خلدون .

ومن مؤرخى العصر المملوكى الكبار « أبو المحاسن بن تغرى بردى » صاحب

« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، وهو مرتب حسب السنين على نهج الطبرى وابن الأثير ، ولا يقتصر فيه على السياسة ، وإنما يؤرخ لمناشط الحياة بما فيها الأدب ، شعره ونثره . وقد تتلمذ عليه السخاوى ، الذى درس على ابن حجر العسقلانى ، وألف كتابه « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » . كما أكمل سلوك المقريزى بكتابه « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » .

ومن أشهر المؤرخين لهذا العصر « ابن إياس » صاحب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وهو تأريخ شامل لمصر منذ أقدم العصور حتى أوائل العصر العثمانى .

ولعل السيوطى هو أغزر هؤلاء المؤلفين جميعاً إنتاجاً ، وقد برع فى جميع العلوم ، وأَرْبت كتبه على الخمسمائة ، قرب فيها العلوم إلى أهل عصره ، وانتشرت ملخصاته وتهذيباته فى أرجاء العالم الإسلامى .

وقد أصاب الكتابة فى عهد العثمانيين ما أصاب العلم والأدب من انحسار وانحطاط . ولا نكاد نجد فى هذا العصر عَلَمَاً يضارع أولئك الأعلام من رجال العصر الأيوبى أو المملوكى ، باستثناء الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، الذى عاش فترة من حياته فى عهد العثمانيين ، وعاش الفترة الباقية فى سنوات الحملة الفرنسية ، وبعض سِنى حكم محمد على ، وقد أرخ للفترة التى عاش فيها فى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ، فكان مثال المؤرخ الأمين على وطنه ، وعلى الحقيقة . وتتضح فى أسلوبه الرِّكَّة ، وينزل درجات عن أسلوب من سبقوه من المؤرخين . ولا شك أنه فى هذا واحد من المتحدثين باللغة فى ذلك العصر ، الذى ضعفت خلاله العربية ، فحفلت بهذه الظواهر من الركاكة واللحن .

obeikandl.com

obeikandl.com

عَـوْدٌ إلى النصـوص

obeikandl.com

يَاغَـزَالاً رَنَـا

لابن نبـاتـة (٦٨٦ - ٧٦٨ هـ)

١

جمال الدين بن شمس الدين بن نباتة المصرى . كان أبوه من شيوخ الحديث بدمشق ، وترجم له صلاح الدين الصفدى فى « **الوافى بالوفيات** » ، ومن أجداده عبد الرحيم بن نباتة خطيب حلب فى عهد سيف الدولة . ومن هنا جاء فخر شاعرنا بآبائه وأجداده ، وتعريضه خلال هذا الفخر بأبى الحسين الجزار ، ونصير الدين الحمَّامى ، وغيرهما من الشعراء البسطاء ، وأصحاب الحرف .

وقد عمرّ طويلاً ، فشهد كثيراً من الفتن والأحداث ، كما شهد الخطر المستشرى من التتار ، والمجاعة التى مُنِيتْ بها مصر ؛ فرقَّت نفسه ، واضطربت أعصابه ، واحتدَّ مزاجه . وصورة نفسه من شعره صورة رجل يؤْثر الدعة والاستكانة . ويبدو أن الحال قد ضاقت به فى آخر عمره ، فرحل عن مصر ، وكثر تقلبه فى البلاد . إلا أنه كان لايفتأ يذكر مصر ، ويحنُّ إليها .

obeikandl.com

ويمتاز شعره بالرقة والسهولة ، التى تميز شعر المدرسة المصرية ، كما يزخر بألوان البديع المختلفة ، وأكثرها ظهوراً فى شعره : التورية ، والتضمين . طُبع ديوانه ١٣٢٣ هـ ، ١٩٠٥ م .

يقـول :ـــ

والـذى زادَ مُقْلتـيك اقتـــداراً
ماأظـــنُّ الوُشـــاة إلا غَيَـارَى
بِهِـمُ مثـلُ مابِنَـا من جُفُـونٍ
شاجيـــــاتٍ تهتِّك الأسْتَـــــارَا
كلَّما جالَ لحْظُهـا تركَ النـا
سَ سُكَارى ، وما هُمُ بسُكَارى
ياغـزالاً رنـا ، وغُصْنـاً تثنـىَّ
وهـلالاً سَمَـا ، وبَـدْراً أنـارا
كان دمْعِى على هـواك لُجَيْنـا
فأحالتْـــه نارُ قلبـــى نُضَارا
حِلْيَـــةٌ لا أُعِيرُهـــا لِمـــحُبٍّ
شَغَـلَ الحَلْـى أهلـه أن يُعَـارا
مالِقَلْبـى اليـتيم ضلَّ وقـــد آ
نَسَ من جانب السَّوَالِـفِ نارَا
لكَ جِيـدٌ ومُقْلَـةٌ تركا الظَّبْـــ
ـىَ – لِفَرْط الحياءِ – يأوى القِفَارا
وثنايا أخـذنَ فى ريقِهـا الخمـ
ـرَ وأعطيْـنَ للعقـولِ الخُمَـــارَا

عاطراتُ الشَّميم تحسَبُ فيهنْـ
ـنَ شذاً من ثنايا ابن شادٍ مُعَارا
المليكُ المؤيَّد اللَّازم السـ
ـدِ ، إن حلَّ حَلَّ ، أوسَارَ سَارَا
والجوادُ الذى حَبَا المالَ حتى
كاد يحبُو الأعمالَ والأعْمَارا
أعدلُ المالكينَ حُكْماً فما يَظْـ
ـلِمُ إلا العُدَاةَ والدينارا
فاح ذكراً ، وفاض فى الخَلْقِ نَهْراً
فحَمِدْنا الرياضَ والأنهارا
ليس فيه عيبٌ سوى أنَّ إحسا
نَ يديْه يستَعْبِدُ الأحْرَارا
البِدارَ البِدارَ نحو نَدَاهُ
فإذَا صالَ فالفِرَار الفِرَارَا

الـرَّبيـع

لصفى الدين الحِلىِّ (٦٧٧ - ٧٥٠ هـ)

٢

عبد العزيز سرايا بن على بن أبى القاسم ، ولد ونشأ بمدينة (الحِلَّة) بالعراق . وصفه بعض من ترجموا له بأنه كان ذا قدرة تامة على النظم والنثر ، وخبرة بالعلوم العربية . وقال ابن شاكر : إنه شاعر عصره على الإطلاق . اشتغل بالتجارة ، وتجوَّل بين بغداد والشام وماردين ، وفى غضون ذلك كان يمدح الملوك والأعيان ، وانقطع مدة إلى ملوك ماردين . أما فى القاهرة التى دخلها سنة ٧٢٦ ، فقد مدح علاء الدين بن الأثير ، فأقبل عليه وأوصله إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقد ترك صفى الدين ديوانا ضخماً من الشعر ، طبع أكثر من مرة ، وهو مقسَّم على أغراض الشعر المختلفة . كما اشتهرت بديعيته التى تولى شرحها بنفسه .

يقول :ـــ

خلعَ الربيـعُ على غصون البَـان
حُلَـلاً فواضِلهُـا على الكُثْبَـان

ونمتْ فروعُ الدَّوْح حتى صافحت
كفلَ الكثيب ذوائبُ الأغصـان

وتتوَّجَتْ هامُ الغصون ، وضرَّجت
خدَّ الرياض شقائـقُ النعمـان

وتنـوَّعت بُسُطُ الرياض ، فزهرُهـا
متبايـنُ الأشـكـالِ والألـوان

من أبيضٍ يَقَـقٍ ، وأصفرَ فاقِـع
أو أزرقٍ صافٍ ، وأحمرَ قانى

والظلُّ يسرقُ فى الخمائلِ خَطْوَه
والغصنُ يَخْطِرُ خِطْرَةَ النشوان
وكأنما الأغصانُ سُوق رواقص
قد قُيِّدت بسلاسلِ الرَّيْحان
والشمسُ تنظرُ من خلال فروعها
نحو الحدائق نِظْرةَ الغيران
والطَّلْع فى خَلَلِ الكِمَام كأنه
حُلَلٌ تفتَّق عن نحورِ غوانى
والأرض تعجَبُ ، كيف تضحكُ والحيا
يبكى ، بدمعٍ دائم الهَمَلان
فاصرفْ همومَك بالربيع وفَصْله
إن الربيعَ هو الشبابُ الثانى
أنىَّ ؟ وقد صَفَت المياهُ وزُخْرفت
جناتُ مصرَ ، وأشرق الهرمان
واخضرَّ واديها ، وحدَّق زهره
والنيلُ فيه ككوثرٍ بِـ ـان
وبه الجوارى المنشآتُ كأنها
عند المسير تَهُمُّ بالطيران
والماء يسرعُ فى التدفُّق كلما
عَجلَت عليه يدُ النسيم الوانى
حتى إذا كُسِرَ الخليج ، وقسِّمت
أمواه لجته على الخلجان

ساوى البلادَ ، كما تساوى فى الندى
بين الأنـام مواهبُ السُّلطـان
مَلِكٌ ، إذا اكتحل الملوكُ بنوره
خرُّوا لهيبتـه إلى الأذقـان
قد عزَّ دينُ محمـدٍ بسميِّـه
وسما بنُصْرتـه على الأديـان
شاهدتُه ، فشهدتُ لقمانَ الحِجَا
ونظرتُ كسرى العدلِ فى الإيوان
ورأيت منه سماحـةً وفصاحـةً
أعدى بفيضِهما يَدى ولِسـانى

obeikandl.com